بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

ـ [الفصـل الخـامـس] :

ـ ﴿ ۞ مـن روائـع الخطـب ۞ ﴾ ـ

ـ ❖ الحجَّاج بـن يـوسـف الثقفـيُّ ❖ ـ

خطبتـه حيـن ولي العـراق :

حَدَّثَ عبدُ الملك بن عُمير الليثيُّ ؛ قال :

بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حـال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَاليه ؛ إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجَّاج قد قدم أميراً على العراق ؛ فإذا به قد دخل المسجدَ مُعتمَّاً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه مُتقلداً سيفاً ، متنكبًّا قوساً ، يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبَّحَ اللهُ بني أمية ؛ حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! ! ؛ حتى قال عُمير بـن ضابئ البرجميُّ : ألا أحصبه لكم ؟ ؛ فقالوا : أمهل حتى ننظر.

فلما رأى عيون الناس إليه ؛ حسر اللثام عن فِيه ؛ ونهض فقال :

أنـا ابـن جـلا وطـلاَّع الثـنايا

متى أضع العمامة تعرفونـى.

ثم قال :

يا أهل الكوفة ! أما والله إني لأحمل الشرَّ بحمله ، وأحذوه بنعلِهِ ، وأجزِيه بمثلِه ، وإني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحان قطافُها ! ؛ وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق !!.

ثم قال :

هذا أوان الشدِّ فاشتدي زِيَمْ
قد لفَّها الليلُ بسواق حُطَمْ
ليس براعي إبلٍ ولا غنمْ
ولا بجزَّارٍ على ظهرِ وَضَمْ

ثم قال :

قد لفَّها الليلُ بعصلبيّ
أروعُ خرَّاجٌ من الدَّوِّيّ
مهاجرٌ ليس بأعرابيّ

ثم قال :

قد شمرت عن ساقها فشُدُّوا
وجدّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا
.. والقوس فيها وترٌ عُرُدُّ
..مثل ذراع البَكْر أو أشَدُّ
...لابدَّ مما ليس منه بُدُّ

إني والله يا أهل العراق ! ومعدن الشقاق والنفاق ! ومساوئ الأخلاق ! ما يقعقع لي بالشنان !، ولا يُغمز جانبيّ كتغماز التين !، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء، وفُتِّشْتُ عن تجربة، وجريت إلى الغاية القصوى !.

وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها ؛ فوجدني أمرَّها عوداً، وأصلبها مكسراً ؛ فرماكم بي ؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سُنن الغِيّ ! أما والله لألحونَّكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنَّكم عصب السلمة، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل ؛ فإنكم لكأهل قرية ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ! وإني والله لا أعدُ إلا وفيتُ، ولا أَهُمُّ إلا أمضيتُ، ولا أخلَقُ إلا فَرَيْتُ ؛ فإيّاي وهذه الشفعاء، والزرافات والجماعات، وقالاً وقيلاً، وما تقول ؟ ! وفيم أنتم وذاك؟ ! ؛ أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق ؛ أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده.

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أُعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ؛ وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلَّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيَّام ! ؛ إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله .)).

ـ ❖ الحَسَـنُ البَصْـرِيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ ❖ ـ

ـ قال ـ رحمه الله تعالى ـ :

« يابن آدم ! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

يابن آدم ! إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه.

الثواء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أُسرِعَ بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ ! فكأن قد ، هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم.

فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبيّ بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس ؛ والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظر بأولكم أن يلحقه آخركم ، من رأى محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد رآه غادياً ورائحاً ؛ لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رُفع له علم ، فشمر إليه ، فالوحاء الوحاء ! والنجاء النجاء ! علام تعرجون ؟ ! أُتِيتُم وربّ الكعبة ! قد أُسرِعَ بخياركم ! وأنتم كل يوم ترذلون ! ، فماذا تنتظرون ؟ ! .

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ؛ ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض ، وآتاه منها قوتاً وبُلغة ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضي له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم.

يابن آدم ! طإ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر

فـاعتبر، وأبـصر فـصبر، فقـد أبـصر أقـوام ولم يـصبروا، فـذهب الجـزع بقلوبهم، ولم يدركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا !.

يابن آدم ! اذكر قوله: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

عدلواللهِ عليك من جعلك حسيب نفسك، خذوا صفا الدنيا وذروا كدرها، فليس الصفو ما عاد كدراً، ولا الكدر ما عاد صفواً، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم.

ظهر الجفاء، وقلت العلماء، وعفت السُّنَّة، وشاعت البدعة.

لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور، ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرَّم الله عليكم منها !.

ما لي أسمع حسيساً، ولا أرى أنيساً ؟ ! ؛ ذهب الناس ؛ وبقي النسناس !.

لو تكاشفتم ما تدافنتم ! تهاديتم الأطباق، ولم تتهادوا النصائح !.

قال ابن الخطاب: رحم الله امرأً أهدى إلينا مساوينا.

أعدوا الجواب فإنكم مسئولون، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكنه أخـذه مـن قِبَـل ربـه، إن هـذا الحـق قـد جهـد أهلـه، وحـال بيـنهم وبـين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته، فمن حمد الدُّنيا ذم الآخرة، وليس يكره لقاء الله إلا مقيمٌ على سخطه.

يابن آدم ! الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ؛ ولكنه ما وقر في القلوب ؛ وصدقه العمل. ».